الدلالة النفسية للحركات العمالية

بقلم
زكريا ابراهيم

لسنا نريد — فى هذه العجالة القصيرة — أن ندرس الحركات العمالية دراسة علمية مفصلة ، وإنما كل ما نرمى إليه هو أن نعرض بالبحث لما تنطوى عليه هذه الحركات من معنى إنسانى طالما أغفله الباحثون . فالباحثون الذين اهتموا بدراسة مشاكل العمال ، قد ألفوا أن يعالجوا الحركات العمالية كما تعالج المشاكل الاقتصادية . وربما كان السبب فى ذلك ، أن الطبقات الممتازة قد عملت على تصوير الطبقة العاملة بصورة مادية ، كأن القيم الروحية وقف على الطبقات المالكة ، دون الطبقات العاملة . ومن هنا فقد ساد الظن بأن سائر الحركات العمالية مطبوعة بالطابع المادى الذى تتميز به طبقة العمال ، وأصبحت مشاكل العمال مجرد مشاكل اقتصادية تترتب على مطالب مادية هى صدى لأطماع تلك الطبقة الفقيرة — وهكذا أصبح رجال الأعمال يأخذون على طبقة العمال نزعتها النفعية ، ويسمونها بالتناقض من جهة أخرى إذا هى اشتغلت بما يعدو حاجتها للغذاء والكساء — وما دامت مطالب العمال — فى نظر الطبقات المالكة — مجرد مطالب مادية لا تتجاوز زيادة الأجور وتوفير أسباب الرفاهية ، فإن المنفعة إذن هى وحدها التى تتحكم فى سائر الحركات العمالية ، والمنفعة وحدها هى أيضاً التى تفسر كل مطالب الطبقة العاملة .

وعلى هذا الأساس ، حاول كثير من أصحاب الأعمال أن يكفلوا للعمال مستوى معقولا من المعيشة ، حتى يضمنوا قيام العمل فى هدوء ، بعيداً عن كل حركات ثورية أو اضطرابات دموية . وفى الوقت نفسه حاولوا أيضاً أن يبينوا للعمال أنه لا فائدة من القيام بمثل هذه الحركات ، إذ لا موجب للتضحية بالحياة الإنسانية من أجل الحصول على مزايا يمكن بلوغها بوسائل سلمية — وما دام فى إمكاننا أن نعالج فقر العمال بالمنظمات الخيرية وهيئات الإحسان والرحمة ، فليس ثمة ما يدعو إلى القيام

بأعمال العنف أو حركات الإضراب .

ولكن الخبز ليس هو الخبز دائماً : بل هناك الخبز الذى يمنح شفقة وإحساناً ، وهناك الخبز الذى ينال بالتعب والكد ، ثم هناك الخبز الذى يغتصب قوة واقتداراً . فليس المهم أن يحصل العامل على ما يمسك به رمقه ، أو ما يضمن به بقاءه ، بل المهم أن يحسن العامل حالته بنفسه !

وإذا كان البعض قد حاول أن يفسر حركات العمال تفسيراً مادياً لا يعدو مجرد سيكولوجيا آلية ، فإن مثل هذا التفسير لا يمكن أن يكشف لنا عن الطابع الحقيقى لهذه الحركات . وليس يكفى من أجل تعليل ما يقوم به العمال من حركات فى سبيل الحصول على مستوى أفضل من المعيشة ، أن نقول إنهم فريسة لعقدة نقص ، وإنما يجب أن نحاول فهم الطابع الخلقى أو المدلول الإنسانى لحركاتهم . وسنرى عندئذ أن الحركات العمالية إنما هى تأكيد للحرية الإنسانية ، وتقرير للقيم الروحية ، التى لا يمكن أن تكون منعدمة عند الطبقة العاملة ، مهما كان من مزاعم الطبقات الكبرى !

فليس من الممكن إذن أن تفسر الحركات العمالية مجرد تفسير طبيعى آلى ، بل لا بد من فهمها على أنها تعبير عن قيم إنسانية عامة . والواقع أن كل حركة سياسية إنما تنطوى على طابع إنسانى ، يعنى خروج الفرد عن موقفه الذاتى الخاص ، من أجل الاشتغال بحركة عامة تمتد نحو الآخرين ، وتتجاوز الحاضر إلى المستقبل فالفرد الذى يشترك فى حركة عامة ، لا يعمل من أجل المحافظة على بقائه ، أو تحسين أسلوب حياته ، وإنما هو يساهم فى حركة سياسية قد يضحى فيها بحياته الخاصة ، فى سبيل الوصول إلى شىء يعلو على وجوده الفردى ، وقد يكون تحقيقه رهناً بالمستقبل — ومعنى هذا أنه من الخطأ أن نتهم بالمادية الوضيعة جماعة من الناس يجاهدون سوياً فى سبيل الوصول إلى مستوى أرقى من المعيشة : فإن كلا منهم إنما يعمل للآخرين ، ولا يرمى إلى إرضاء حاجة مباشرة أو مطلب مادى ، بل هو يتجاوز سائر الحاجات الحيوانية ، لكى يقرر قيما إنسانية مشتركة .

والواقع أن قطعة الخبز كثيراً ما تكون هى نفسها الحياة ، بل قد تكون تقريراً لحق الحياة بالنسبة إلى الفرد والجماعة معاً ، فى الحاضر وفى المستقبل أيضاً . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن مستوى الحياة الذى يتطلبه العامل ليس مجرد صدى لحاجات مادية مباشرة . وهو أيضاً ليس مجرد نتيجة لرغبة فى التعويض ، بل هو

تعبير حى عن الفكرة التى يكونها العامل عن نفسه . فليس هدف العامل مجرد زيادة الأجور — من حيث هى كمية معينة من المال أو المادة، بل هو هذه الزيادة — من حيث هى نتيجة لفعله الخاص ، وثمرة لحركته الخاصة . ولهذا فإنه ليس بدعاً أن يضحى العامل بحياته نفسها ، مخاطراً بأعز ما يملك ، فى سبيل الوصول إلى مستوى أرقى من المعيشة ، يحصله بنفسه ، ويصل إليه بقدرته الخاصة . ومعنى هذا أن الحركات العمالية إنما هى تقرير لقدرة العامل ، وتأكيد لحريته الخاصة ، أعنى أنها تعبير عن معنى إنسانى . فالعامل الذى يقوم بمظاهرة مشتركة أو حركة إضراب عامة ، إنما يؤكد قدرته على تحسين حاله بنفسه . وهذا هو ما لم يفطن إليه هؤلاء الذين نظروا إلى حركات العمال نظرة سطحية ، دون أن يحاولوا فهم المدلول الإنسانى لهذه الحركات الإنسانية التى تعبر عن قيم روحية .

ولو أننا تأملنا سائر الحركات الثورية التى شهدها التاريخ ، لرأينا أن قيمة هذه الحركات لا تنحصر فى نتائجها ، بل فى الحركة نفسها . فليس فى استطاعتنا أن نفهم أى ثورة إذا نظرنا فقط إلى ما ترتب عليها من نتائج ، بل لا بد من ربط نتيجة الثورة بالحركة الثورية نفسها . وليس من شك فى أن الثائر لا يمتد ببصره إلى ما يعقب الثورة ، بل هو يريد الثورة لذاتها ، ولا يرمى من خلالها إلا إلى تقرير حريته الخاصة ، وتأكيد قدرته الذاتية . وإذا كنا نجد على مر العصور التاريخية سلسلة طويلة من الحروب والثورات التى قد تبدو فى الظاهر مجرد حركات عقيمة ، فإن من واجبنا ألا نحكم على هذه الحركات بما أفضت إليه من نتائج ، بل لا بد من النظر إليها فى ذاتها — فهذه الحركات لم تكن عقيمة ، لأنها لم تطلب فقط من أجل نتائجها ، بل هى قد كانت إلى حد كبير غاية فى ذاتها[1] . . .

وإذا كان « خير » الإنسان لا يمكن أن يوهب له من الخارج ، فإن الإنسان إذن مضطر إلى أن يحصل خيره بنفسه ، فيستعمل حريته فى الحصول عليه أو الوصول إليه . ومن هنا فإن كل الحركات العمالية إنما هى تقرير للحرية الإنسانية وتأكيد للقيم الروحية ، لأن على العامل أن يحصل بنفسه ما يرمى إليه من خير . وإذا كنا قد تبينا من قبل أن الخبز ليس هو الخبز دائماً ، فليس بدعاً أن يكون الخبز الذى تريده الطبقة العاملة ، إنما هو الخبز الذى تنتزعه بنفسها ، وتحصل عليه بقدرتها ، وتؤكده بفعلها الخاص . أما تلك الهيئات التى تريد أن تتصدق عليها

(١) Simone de Beauvoir : "L'Existentialisme et la Sagesse des Nations." Nagel. Paris. 1948.. P. 80 — 81.

بلقمة العيش ، فإنها لن تنجح مطلقاً فى أن تقضى على حركاتها التى قد يضحى فيها العامل بحياته من أجل شىء يفوق فى قيمته الحياة نفسها ، ومعنى هذا أن الحركات العمالية لا يمكن أن تفسر تفسيراً آليا مادياً ، بل لا بد من أجل تعليلها تعليلا علمياً صحيحاً ، أن نعمل حساباً كبيراً للوجود الإنسانى الذى لا يقوم بدون الحرية ، ولا يفهم إلا على ضوء القيم الروحية .

زكريا إبراهيم

السينما والجريمة

من واجب المجتمع نحو أفراده السهر على صحتهم النفسية كما يسهر على صحتهم الجسمية وذلك بمراقبة كل العوامل التى قد تحدث اضطراباً خلقياً فى عقول الأطفال والشباب ، فعليه أن يراقب الصحافة وخاصة الصحافة الأسبوعية المصورة التى تنقل إلى عقول قرائها سموماً مستترة ومخدرات معنوية هدامة وجراثيم خلقية فتاكة — وللأسف لا تقل بعض الصحافة العربية إباحية واستهتاراً عن زميلاتها فى الخارج — كما أن على المجتمع أن يراقب الأفلام والمشاهد المسرحية وأن يشن حرباً لا رحمة فيها ضد تجار الفساد ورسل الجريمة .

وقد أجرى إحصاء فى عام ١٩٣٨ عن نوع الأفلام التى عرضت فى أربعين ألف صالة شهدها سبعون مليون من الأشخاص ٦٥ فى المائة منهم من الأطفال والقصر . وتوزع موضوعات هذه الأفلام كالآتى :

٣٤٠ حالة سرقة مصحوبة باعتداء مسلح منها حالات قتل .
١٧٤ حالة تهديد بإفشاء أسرار تهدد الكرامة أو الشرف أو الاطمئنان الاجتماعى .
٢٥٤ حالة إفساد قصر . ١٤٠٥ حالة زنى . ١٣٥٦ حالة سكر وعربدة .
١١٥٥ حالة ختطاف أشخاص .

أى أكثر من ٤٧٠٠ جريمة يعاقب عليها القانون وتستنكرها الأخلاق الإنسانية ، هذا فضلا عن ٧٤٥ حالة انتحار . والإحصائية الآتية تقدم لنا بيانات بليغة عن أثر الأوساط الخارجية فى إفساد الأطفال من بنين وبنات :

	بنين	بنات
أثر الشارع ورفاق السوء	٦٦,٣ ٪	٦٨ ٪
أثر القراءات المثيرة للشهوة	٢٥,٣ ٪	١٠ ٪
أثر السينما	٣٤,٤ ٪	٢٥ ٪
أثر صالات الرقص	١٧,٦ ٪	١٦ ٪